جمالية الذوات المُحِبَّة
للمُقْسِطِين والمُطهّـرين والمتطهرين
في النص القرآني

الأستاذ الدكتور
هناء جواد عبد السادة

المدرس المساعد
حاكم فضيل عطيوي

جامعة بابل ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

جمالية الذوات المُحِبَّة للمُقْسِطِين والمُطهَرين والمتطهرين في النص القرآني

الأستاذ الدكتور
هناء جواد عبد السادة

المدرس المساعد
حاكم فضيل عطيوي

جامعة بابل ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية

مقدمة:

في الجمال الإلهي والذات المحبة:

الجمال الإلهي هو حقيقة الحق عزّ وجلّ، وليس من الجمال ما يوصف بأنه حقيقي إلا سبحانه وتعالى، ومنه قول الإمام علي عليه السلام في صفات ثمان من صفات الجلال:

((وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلـهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ: الأَوَّلُ لاَ شَيْءَ قَبْلَهُ، والآخِرُ لاَ غَايَةَ لَهُ، لاَ تَقَعُ الأَوْهَامُ لَهُ عَلى صِفَة، وَلاَ تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّة، وَلاَ تَنَالُهُ التَّجْزِئَةُ وَالتَّبْعِيضُ، وَلاَ تُحِيطُ بِهِ الأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ))[1]. فهذا وصفٌ لحقيقة الجمال الإلهي الذي ابهر الفلاسفة والمفكرين.

ومنهم ابن عربي (ت٦٣٨هـ) الذي يقول في فصوص الحكم: ((من تجليات ذاته تعالى التي تجمعها مرتبة الإلوهية هي صفات متعددة متقابلة كاللطف والقهر والرحمة والغضب والرضا والسخط وغيرها، وتجمعها النعوت الجمالية والجلالية إذ كل ما يتعلق باللطف هو الجمال وما يتعلق بالقهر هو الجلال. ولكل جمال أيضاً جلال كالهيمان الحاصل من الجمال الإلهي فإنه عبارة عن انقهار العقل منه وتحيره فيه ولكل جلال جمال وهو اللطف المستور في القهر الإلهي))[2].

أما الناقد الانكليزي ريتشاردز فيقول: متحدثا عن الجمال والخير

والحقيقة: ((إذا كنا نستطيع أن نتجنب استعمال كلمة ثالوث في هذا المجال وإذا كنا نؤمن بوجود إله على الإطلاق فلا يسعنا إلا أن نقول أنها جميعاً شيء واحد؛ لأنها جميعاً مظاهر لإله واحد،أما إذا لم نكن نؤمن بوجود إله فحينئذ لا يوجد أي تفسير لذلك))[٣].

وهنا عندما يتضح مصدر الجمال والجلال ومعناهما،وكذلك مصدر الخير والحق يمكن تحسس مدى علاقة جمال الذات العابدة بالمحبة الإلهية، فالذات هي النواة في العمق التي تحتوي الفكرة في الدائرة وتدور حولها عدة مدارات، فحقيقة الوجود تكمن في الجمال الإلهي، والذات المحبة في الإنسان هي شعاع إلهي مصدره الذات المقدسة، وإنّ السعي لتحصيل المحبة الإلهية من أسمى غايات الذات العابدة، وهنا حينما نتواصل ونصوص القرآن الكريم ؛لأننا نتشوّق لمعرفة المراتب والصفات التي يمكن أن تعمل على تحصيلها الذات العابدة، وهذا الأمر يتطلب التدبر في الآيات التي ارتبطت بقضايا المحبة الإلهية وصفات الذات المحبة والمحبوبة، وإن ارتبط الأمر بالتطبيق العملي إلا أنه من الممكن التوسل في البداية نظريا من خلال تأمل آياته تعالى، والاسترشاد بهداية النصوص وتفسيرها؛ لكي تكون مبادئ تبني عليها الذات منطلقها و مشروعها ومسيرتها، وهنا سيكون البحث معنيا بذوات المقسطين والمطهّرين والمتطهرين وهو جزء من مشروع البحث عن الذوات المحبة لله تعالى و المحبوبة من لدن الله تعالى، وسيقتصر البحث على تحليل الآيات المتضمنة لألفاظ المقسطين والمطهرين والمتطهرين، والاستعانة بمعانيها التفسيرية بغية المعرفة وطلب العلم بهذا الجانب الجمالي والأدبي المعجز.

أولاً: الذوات المحبة للمقسطين:

إن محبة الله تعالى للإنسان يلزم منها التحلي بالصفات التي يحبها الله تعالى،وإن التحلي بصفة المقسطين من دواعي محبة الله تعالى للإنسان،

والإقساط هو صفة مطلوبة في كل معاملة إنسانية، ولا يمكن التخلي عنها لأي ذريعة، وقد تناول الراغب الأصفهاني معاني مفردة القسط ومشتقاتها في القرآن الكريم: ((والقِسْطُ هو أن يأخذ قِسْطَ غيره وذلك جورٌ، والإقساط أن يُعطي قِسط غيره وذلك إنصافٌ ولذلك قيل قَسَطَ الرجلُ إذا جارَ، وأَقْسَطَ الرجلُ إذا عدلَ))[٤].

قال تعالى: ﴿... وَلَا تَسْأَمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ...﴾ البقرة: ٢٨٢، فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معناه أعدل والقسط: العدل تقول: أقسط إقساطا، فهو مقسط إذا عدل ومنه قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ والقسط: الحصة تقول أخذ فلان قسطه أي حصته. وقد تقسطوا الشيء بينهم أي اقتسموه على القسط أي على العدل. وكل مقدار قسط؛ لأنه عدل غيره بالمساواة له. والقسوط: الجور لأنه عدول عن الحق قسط يقسط قسطا، فهو قاسط إذا جاز عن الحق. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ والرجل القسطاء: التي في ساقها اعوجاج لعدوله عن الاستقامة[٥]، فالاستقامة وحفظ الحقوق بين الناس من أهم الأمور التي أوجبها الله تعالى، وحرّم اهدارها لأنها تخلُّ بالصورة التي أرادها لعبيده، ولأن فقدانها يسبب إحلال صفة الظالمين مكانها، وهذا تشويه للذات الإنسانية الجميلة.

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ آل عمران: ١٨، معنى قائما بالقسط أي قائما بالعدل كما تقول: قائما بالتدبير أي يجريه على الاستقامة فكذلك يجري التدبير على الاستقامة والعدل في جميع الأمور[٦]، ولما كان الله تعالى قائماً بالقسط في خلقه أراد من عبده أن يكون مثله ليستحق محبته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ النساء/٣، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ على قول من قال ما رويناه أولا عن عائشة وأبي جعفر عليهما السلام. ومن قال: تقديره: إن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فكذلك خافوا في النساء الجواب قوله: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ والتقدير: فان خفتم ألا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء، فلا تتزوجوا منهن إلا من تأمنون معه الجور، مثنى وثلاث ورباع، وان خفتم أيضا من ذلك فواحدة، فان خفتم من الواحدة فما ملكت ايمانكم، فترك ذكر قوله فكذلك فخافوا ألا تقسطوا في حقوق النساء لدلالة الكلام عليه وهو قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

ومعنى ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ أي لا تعدلوا ولا تنصفوا، فالإقساط هو العدل والإنصاف والقسط هو الجور. ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. واليتامى جمع لذكران اليتامى وإناثهم في هذا المعنى(٧)، ولأهمية العدالة والإنصاف بين الزوجات التي أباح تعددها حتى الأربع للرجل الواحد،أكد سبحانه وتعالى على ضرورة العدالة والإنصاف ما بينهن؛ وإلا بخلاف ذلك، فالعمل الصحيح هو القصور على زوجة واحدة؛ حفاظاً على الرجل من عدم تحقيق شروط تعدد الزوجات وبالتالي تحمل الإثم، وفي هذا الحكم أيضا حفظ لحق المرأة وذاتها، كما أنه حفظ لاستقامة الرجل وعدالته بما يجعله أكثر أمناً من المخالفة المفروضة والمشروطة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يونس/٤.

وقوله ﴿بِالْقِسْطِ﴾ معناه بالعدل، لأنه لو زاد الجزاء أو نقص لخرج عن العدل، ولكن يجزيهم وفق اعمالهم حتى لا يكون الجزاء على النبوة كالجزاء على الإيمان بل كل طاعة يستحق الجزاء على قدرها[٨]، فقيام الله تعالى بالقسط تجعل القسط صفة مطلقة للمعاملة الإلهية، وكذلك تجعلها مطالبة مطلقة على الذات العاقلة ؛لأن الذات الإلهية توجب إقامتها.

وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ الأنبياء/٤٧ والعدل في المجازاة بالحق لكل احد على قدر استحقاقه، فلا يبخس المثاب بعض ما يستحقه، ولا يفعل بالمعاقب فوق ما يستحقه. وقال الحسن: هو ميزان له كفتان ولسان، يذهب إلى انه علامة جعلها للعباد يعرفون بها مقادير الاستحقاق. وقال قوم: ميزان ذو كفتين توزن بها صحف الأعمال. وقال بعضهم: يكون في إحدى الكفتين نور، وفي الأخرى ظلمة، فأيهما رجح، علم به مقدار ما يستحقه، وتكون المعرفة في ذلك ما فيه من اللطف والمصلحة في دار الدنيا. وقوله ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ معناه لأهل يوم القيامة. وقيل في يوم القيامة. وقوله ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ معناه أنه لا يضيع لديه قليل الأعمال والمجازاة عليه، طاعة كانت أو معصية ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أي وكفى المطيع أو العاصي بمجازاة الله وحسبه ذلك. وفي ذلك غاية التهديد، لأنه إذا كان الذي يتولى الحساب لا يخفى عليه قليل ولا كثير، كان أعظم. والباء في قوله "كفى بنا" زائدة. و﴿حَاسِبِينَ﴾ يحتمل أن يكون نصبا على الحال أو المصدر[٩]، فجمالية العدالة الإلهية تتراءى في جهات، و(وضع الموازين بالقسط) هي إحدى هذه الجهات؛ لأنها الأسس التي يهتدي وفقها الإنسان في معاملاته الاجتماعية وأفعاله الفردية.

وقوله تعالى من سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

وقال ابن عباس وابن زيد: أصحاب الأيك هم أهل مدين. وإنما قال ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل أخوهم كما قال في سائر من تقدم من الأنبياء لأنه لم يكن منهم في النسب، وسائر من تقدم كانوا منهم في النسب، إلا موسى[١٠]، فإنه كان من بني إسرائيل، وكانوا هم قبطا ولم يسمه الله بأنه أخوهم. ثم حكى عن شعيب انه قال لقومه مثل ما قاله سائر الأنبياء.

ثم قال لهم ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي أعطوا الواجب وافيا غير ناقص ويدخل الوفاء في الكيل والذرع والعدد، يقال: أوفى يوفي إيفاء ووفاء. ونهاهم أن يكونوا من المخسرين، فالمخسر المعرض للخسران في رأس المال بالنقصان أخسر يخسر إخسارا إذا جعله يخسر في ماله، وخسر هو يخسر خسرانا واخسره نقيض أربحه. وأمرهم أن يزنوا بالقسطاس المستقيم، فالوزن وضع شي بإزاء المعيار، لما يظهر منزلته منه في ثقل المقدار إما بالزيادة أو النقصان أو التساوي. والقسطاس العدل في التقويم على المقدار، وهو على وزن (قرطاط).

وجمعه قساطيس. وقال الحسن: القسطاس القبان. وقال غيره هو الميزان. وقال قوم هو العدل والسواء[١١]، وإن القسطاس ((يُعبّر به عن العدالة كما يُعبر عنها بالميزان))[١٢]. وتحقيق (القسطاس المستقيم) يحفظ المتعاملين من الوقوع في شبهات الحرام، وهذا من الحكمة الإلهية في تحقيق العدالة وحماية اللحمة الاجتماعية من التشتت وحماية الأمة من أضرار الشبهات وما يتخلف

عنها من ظواهر الغش والاستغلال والطبقية وفي دفع ذلك الضرر ترسيخ للأسس الجمالية في المجتمع،وتثبيت للتكافل والتكاتف.

وقال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ الحجرات/٩، لا يقتصر العدل على المعاملات الاقتصادية والاجتماعية الصغرى (الجزئية) إنما يشمل المعاملات الكبرى (الكلية) نحو الخلافات بين الطوائف والقبائل والدول مع مراعاة جهة الحق ونصرها، وقوله ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يدل على أنهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان، ويطلق عليهما هذا الاسم، بل لا يمتنع ان يفسق احد الطائفتين أو يفسقا جميعا، وجرى ذلك مجرى أن تقول: وإن طائفة من المؤمنين ارتدت عن الإسلام فاقتلوها. ثم قال ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ﴾ أي فان بغت إحدى الطائفتين على الأخرى بأن تطلب ما لا يجوز لها وتقابل الأخرى ظالمة لها متعدية عليها ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ لأنها هي الظالمة المتعدية دون الأخرى ﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي حتى ترجع إلى أمر الله وتترك قتال الطائفة المؤمنة. ثم قال ﴿فَإِنْ فَاءَتْ﴾ أي رجعت وتابت وأقلعت وأنابت إلى طاعة الله ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ يعني بينها وبين الطائفة التي كانت على الإيمان ولم تخرج عنه بالقول، فلا تميلوا على واحدة منهما ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعدلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني العادلين، يقال: أقسط إذا عدل، وقسط إذا جار. قال الله تعالى ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[1].

وقيل: إن الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار وقع بينهما حرب وقتال - ذكره الطبري - ثم اخبر تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين يوحدون الله تعالى ويعملون بطاعاته ويقرون بنبوة نبيه ويعملون بما جاء به ﴿إِخْوَةٌ﴾ يلزمهم نصرة بعضهم

بعضاً ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ يعني إذا رجعا جميعاً إلى الحق وما أمر الله به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعته واتقوه في مخالفتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ معناه لكي ترحمون لان (لعل) بمعنى الشك والشك لا يجوز على الله تعالى، قال الزجاج: سموا المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم بأنهم أخوة، لاتفاقهم في الدين ورجوعهم إلى أصل النسب[١٣]، فالقواعد الربانية خيرٌ من الأعراف والتقاليد الشائعة، وإن في تطبيق هذه القواعد تحقيقا للسعادة ونشراً للخير بما يؤدي إلى كسب محبة الله تعالى ورضوانه.

وقال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الممتحنة (٨-٩) قال ابن عباس: يقول الله تعالى مخاطبا للمؤمنين ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾ " عن " مخالطة " الذين لم يقاتلوكم في الدين "من الكفار" ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم " وتحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ معناه تعدلوا إليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يعني الذين يعدلون في الخلق. وقيل معناه إن الله يحب الذين يقسطون قسطا من أموالهم على وجه البر[١٤]، وقال الفراء الآية نزلت في جماعة كانوا عاقدوا النبي ﷺ ألا يقاتلوه ولا يخرجوه، فأمر رسول الله ﷺ ببرهم والوفاء لهم إلى مدة اجلهم. ثم بين تعالى على من يتوجه النهي ببره وإحسانه فقال " إنما ينهاكم الله عن "مبرة" الذين قاتلوكم في الدين " من أهل مكة وغيرهم ﴿وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ يعني منازلكم وأملاككم ﴿وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ أي تعاونوا على ذلك وتعاضدوا، والمظاهرة هي المعاونة ليظهر بها على العدو بالغلبة. وقوله ﴿أَنْ

﴿تَوَلَّوْهُمْ﴾ أي ينهاكم عن أن تنصروهم وتوادوهم وتحبونهم ثم قال ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾ أي ومن ينصرهم ويواليهم ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لا نفسهم، لأنهم يستحقون بذلك العقاب والكون في النار[١٥]، فواجب المؤمنين أن يميزوا بين الناس ممن يستحق العفو والصفح والبر وممن لا يستحقه، فهذا أمرٌ مهم وجانب من جوانب العدل والاستقامة والإنصاف الذي يحبه الله عز وجل.

ثانياً: الذوات المحبة للمطهّرين والمتطهرين:

تسعى الذات المحبة إلى تحصيل طهارة القلب ليس شكلاً بل بالصدق والإيمان والسلوك أي بتحصيل صفات الجمال الروحي وليس البدني فقط، يقول الراغب: ((والطهارةُ ضربان طهارة جسمٍ، وطهارة نفسٍ وحُمِلَ عليهما عامةُ الآيات))[١٦].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة/١٢٥، وهذه الآية تؤكد أهمية جماليات المكان،ولاسيما المكان المقدس، فأمر الله نبيه أن يطهراه من فرث ودم كان يطرحه عنده المشركون قبل أن يصير في يد إبراهيم ويجوز أن يريد طهراه من الأصنام، وذهب الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) إلى: أن ((في ذلك حثٌ على تطهير القلب لدخول السكينة فيه))[١٧]، وقال تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ التوبة/١٠٩.

وقوله ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ قال الحسن: معناه يريدون أن يتطهروا من الذنوب وقيل: يتطهرون بالماء من الغائط والبول، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام ثم قال ﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي يريد منافع المتطهرين من الذنوب

وكذلك المتطهرين من النجاسة بالماء. وروي عن النبي ﷺ أنه قال لأهل قباء (ماذا تفعلون في طهركم فان الله أحسن عليكم الثناء) قالوا: نغسل أثر الغائط فقال (أنزل الله فيكم ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾)[١٨]،وذهب الراغب: إلى ((أنه يعني تطهير النفس))[١٩]، فالعبادة في بيوت الله تعالى إحدى وسائل تطهير الذات المسلمة من الأمراض المعنوية بما تحققه من جمال النفوس بتطهيرها.

وتطهيرها من الأصنام، والأوثان التي كانت عليه للمشركين قبل أن يصير في يد إبراهيم. وبه قال قتادة، ومجاهد. وقال السدي طهراه ببنائكما له على الطهارة، كما قال: "أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير"[٢٠]، ومن الثابت في الفقه الإسلامي تقدّم الطهارة على غيرها من العبادات لذلك كان أول أمر لله تعالى موجه لإبراهيم عليه السلام هو القيام بطهارة البيت المعنوية والمادية؛ ليكون هذا الفعل علامة على أهميته في الدين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة/ ٢٢٢) وعند الراغب معناه ((أي التاركين للذنب والعاملين للصلاح))[٢١]، فالملازمة بين التوبة والتطهر ملازمة يقتضيها جمال الذات، وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ التوبة/١٠٣. وقوله ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ إنما ارتفع (تطهرهم) لأحد أمرين: احدهما - أن تكون صفة للصدقة وتكون التاء للتأنيث، وقوله ﴿بِهَا﴾ تبيين له والتقدير صدقة مطهرة. والثاني - أن تكون التاء خطابا للنبي ﷺ والتقدير فانك تطهرهم بها، وهو صفة للصدقة أيضا إلا انه اجتزاء بذكر (بها) في الثاني عن الأول. وقيل: انه يجوز أن يكون على الاستئناف، وحمله على الاتصال أولى، ولا يجوز أن يكون جوابا للأمر لأنه لو كان كذلك لكان مجزوما. وقوله ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ تقديره وأنت تزكيهم على الاستئناف. وقيل في هذه الصدقة

قولان: قال الحسن: إنها هي كفارة الذنوب التي أصابوها، وقال أبوعلي: هي الزكاة الواجبة. وأصل التطهير إزالة النجس، والمراد - هاهنا - إزالة النجس: الذبوب بما يكفرهم من الطاعة. وقوله ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أمر من الله تعالى للنبي أن يدعو لمن يأخذ منه الصدقة. وقال الجبائي: يجب ذلك على كل ساع يجمع الزكوات ان يدعوا لصاحبها بالخير والبركة، كما فعل رسول الله ﷺ[٢٢]، وتحقيق الطهارة المعنوية في تزكية الأموال أمرٌ مهم؛ لأنه من دعائم جمال الذات المؤمنة، ومن أسس المجتمع الجميل الذي يريد كسب المحبة الإلهية، بإعطاء المستحقين حقوقهم.

وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ البقرة/٢٥، قيل: مطهرة في الأبدان والأخلاق والأفعال[٢٣]، وقيل ((مُطهلرات من درن الدنيا وأنجاسها، وقيل من الأخلاق السيئة بدلالة قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ الواقعة/٣٧))[٢٤]، ولما كان الله عز وجل يحث على وجوب الطهارة وأثرها الإيجابي في النفس والمعاملة والنظرة جعلها من صفات الأزواج في الجنان، فهي من أهم ما يمنح السعادة وهي كذلك هي من أعظم المكافآت.

وقال تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ الأحزاب/٣٣.

روى أبو سعيد الخدري وانس بن مالك وعائشة وأم سلمة وواثلة بن الاسقع أن الآية نزلت في النبي ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وأهل البيت نصب على النداء أو على المدح، فروي عن أم سلمة أنها قالت إن النبي ﷺ كان في بيتي فاستدعا عليا وفاطمة والحسن والحسين، وجللهم

بعباء خيبرية، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فأنزل الله تعالى قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[٢٥]، وتأكيد فعل التطهير الممنوح من الله تعالى إلى أهل البيت عليهم السلام هو دلالة على سمو الذات الممنوحة، وجمالها الروحي، ومنزلتها الإيمانية العالية؛ مما يوجب كرامتها عند الله تعالى وقبولها في التشفع للناس.

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ آل عمران/٥٥.

وقوله: (ومطهرك) قيل فيه قولان: أحدهما - مطهرك بإخراجك من بين الارجاس، لأن كونه في جملتهم بمنزلة التنجيس له بهم، وإن كان عليه السلام طاهرا في كل حال، وإنما ذلك على إزالته عن مجاورة الأنجاس. والثاني - قال أبوعلي: تطهيره: منعه من كفر يفعلونه بالقتل الذي كانوا هموا به لان ذلك نجس طهره الله منه[٢٦]، فإن الله تعالى منح الأنبياء والرسل عليهم السلام منازل عالية لما يمتلكونه من صفات الخير والجمال والحق، وأعطاهم وعوداً برفع منازلهم تحقيقاً للعدالة الإلهية وكان التطهير من علامات هذه المنزلة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ آل عمران/٤٢ وقوله: (وطهرك) في معناه قولان: أحدهما - قال الحسن، ومجاهد: طهرك من الكفر. والثاني - ذكره الزجاج أن معناه طهرك من سائر الادناس: الحيض، والنفاس، وغيرهما[٢٧]. وصفات الجمال الروحي والمادي التي امتلكتها ذات السيدة مريم عليها السلام كرمها الباري عز وجل فرفع درجتها حتى اصطفاها على نساء العالمين، واستعمال حرف الجر على دليل الرفعة والرتبة.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ البينة/١-٣ يعني في السماء لا يمسها إلا الملائكة المطهرون من الانجاس[٢٨]، فصفة المطهرة لكتب الوحي هي من جماليات الأفعال الإلهية ومن جماليات التبليغ الإلهي المنزهة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الواقعة ٧٧-٨٠ وقوله ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: لا يمس الكتاب الذي في السماء إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة - في قول ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وجابر وابن زيد وأبي نهيد ومجاهد. وقيل ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ في حكم الله. وقد استدل بهذه الآية على أنه لا يجوز للجنب والحائض والمحدث أن يمسوا القرآن، وهو المكتوب في الكتاب الذي فيه القرآن أو اللوح، وقال قوم: إنه لا يجوز لهم أن يمسوا الكتاب الذي فيه، ولا أطراف أو راقه، وحملوا الضمير على انه راجع إلى الكتاب وهو كل كتاب فيه القرآن. وعندنا إن الضمير راجع إلى القرآن. وإن قلنا إن الكتاب هو اللوح المحفوظ، فلذلك وصفه بأنه مصون، ويبين ما قلناه قوله ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني هذا القرآن تنزيل من رب العالمين أنزله الله الذي خلق الخلائق ودبرهم على ما أراد[٢٩]، وقد ذهب الراغب الأصفهاني في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ إلى قوله: ((محاسنُ أنواره لا يُثقفها إلا البصائر الجلية وأطايب ثمره لا يقطفها إلا الأيدي الزكية، ومنافع شفائه لا ينالها إلا النفوس النقية))[٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ سورة الفرقان، أي طاهرا مطهرا

مـزيلا للأحـداث والنجاسـات مـع طهارتـه في نفسـه[٣١]، ومـن الأقـوال في ﴿طَهُورًا﴾ إن المـاء طـاهر ومطهّـر لغـيره و وصِـف بـذلك تنبيهـاً علـى هـذا المعنى[٣٢]، وأقول إن حيوية الماء تدل على ما فيه من أسرار الخلق الإلهي وهي أسـرار تتعلـق بجمـال الخلـق الجوهريـة، فالمـاء يشـكل نسـبة كـبيرة مـن التكـوين البنـائي لأجسـام الكائنـات الحيـة وغـير الحيـة ومـن الضـروري أن تكـون صـفة الطهور من ملازمات هذا الخلق العجيب للماء.

الملخص:

بعد الحمد والشكر لله تعالى، أردنا في بحثنا عـن حـداء الـذات وحنينهـا في مسيرة التكامل الإنساني؛ بحثاً عن جمالية الذات المحبـة الـتي ينبعـث نـورُ إيمانهـا مـن جـلال الخـالق المحـب الـذي "لاَ تُحِيطُ بِهِ الأَبْصَـارُ وَالْقُلُـوبُ"، فالتشـريع القرآني المصوّر في آيات المقسطين والمطهِّرين والمتطهـرين وغيرهـا مـن الصـفات الـتي يحبهـا سـبحانه وتعـالى ينسـج لحمـة جماليـة للـذات المحبـة للعـدل وتطبيـق العـدل،وللنقاء النفسـي والحيـاتي الـذي يشـترك في بنـاء الهالـة الضـوئية للـذات الإيجابية المعتدلة التي أسميناها (الذات العابدة)؛ لبناء درجـة مـن الـذات تتجـه بالتلاحم مع (الذات العالمة) لبناء (الذات الخاشية)، وإن ارتبط الأمر بـالتطبيق العملي إلا أنه من الممكن التوسل في البداية نظريا من خلال تأمـل آياتـه تعـالى، والاسترشاد بهداية النصوص وتفسيرها؛ لكي تكون مبادئ تبني عليهـا الـذات منطلقها و مشروعها ومسيرتها، وهنا لما كـان الله تعـالى قائمـاً بالقسـط في خلقـه أراد مـن عبـده أن يكـون مثلـه ليسـتحق محبتـه، وأن تسـعى الـذات المحبـة إلى تحصيل طهارة القلب ليس شكلاً بل بالصدق والإيمان والسلوك؛ أي بتحصـيل صـفات الجمـال الروحـي وليس البـدني فقط،أسـوةً بـالتطهير الممنـوح مـن الله تعالى إلى الرسول محمـد صـلى الله عليه وآلـه وصـحبه وسـلم وأهـل بيتـه عليهم السلام، الـذي هـو دلالـة علـى سمـو الـذات الممنوحـة، وجمالهـا الروحـي، ومنزلتهـا

الإيمانية العالية؛ مما يوجب كرامتها عند الله تعالى وقبولها في التشفع للناس، والله تعالى خير هادٍ إلى سبل الرشاد والتوفيق.

النتيجة:

اتضح في تحليل آيات المقسطين والمطهّرين والمتطهرين إنها من دعائم بناء الذات المحبة، والمحبوبة من لدن الباري عز وجل، وإن هذه الصفات ليست عرضية بل هي صفات جوهرية في تكامل الخَلق والخُلق، وهي من الواجب تحقيقها على مستوى النفس والفعل والعمل والرؤية، فجمال الاستقامة والنقاوة في الحياة هو جمال إلهي فيّاض تعيه النفوس المهذبة المنصفة، والطاهرة من الذنوب، والملتزمة بأداء الواجب الإلهي والإنساني فالجمال ذات تتجلى بقدر تحصيل صفات المحبة الإلهية نفسياً وحياتياً، وهذا المعنى يجعل منها من لوازم الإيمان والعمل الصالح، وإن التشريع القرآني المصوّر في آيات المقسطين والمطهرين والمتطهرين ينسج لحمة جمالية للذات المحبة للعدل وتطبيق العدل، وللنقاء النفسي والحياتي الذي يشترك في بناء الهالة الضوئية للذات الإيجابية المعتدلة التي أسميتها (الذات العابدة)؛ لبناء درجة من الذات تتجه بالتلاحم مع (الذات العالمة) لبناء (الذات الخاشية) ليكون هذا البناء للذات صورة من معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر/٢٨.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.

هوامش البحث

(١) نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي: ١٦٥، ضمن مكتبة اليقين الالكترونية.
(٢) فصوص الحكم لابن عربي، محي الدين بن عربي ت ٦٣٨هـ ضمن مكتبة أهل البيت الالكترونية: ٤٤-٤٥.
(٣) مبادئ النقد الأدبي : إ.أ. ريتشاردز : تر. د. مصطفى بدوي: ٣٦١.
(٤) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) ضبط: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ط: ١ : ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨: ٤٢٠.
(٥) التبيان في تفسير القرآن : للشيخ الطوسي: المجلد ٣٧٥/٢.
(٦) التبيان: ٢/ ٤١٨.
(٧) التبيان: ١٠٤/٣.
(٨) م.ن: ٣٣٧/٥.
(٩) التبيان : ٢٥٤/٧.
(١٠) م.ن: ٥٧/٨.
(١١) التبيان: ٥٨/٨.
(١٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٠.
(١٣) التبيان: ٣٤٦/٩.
(١٤) التبيان: ٥٨٢/٩.
(١٥) م.ن : ٥٨٣/٩.
(١٦) المفردات في غريب القرآن: ٣١٩-٣٢٠.
(١٧) م.ن: ٣٢٠.
(١٨) التبيان:٣٠٠/٥.
(١٩) المفردات في غريب القرآن: ٣٢٠.
(٢٠) التبيان: ٤٥٤/١.
(٢١) المفردات في غريب القرآن:٣٢٠.
(٢٢) التبيان: ٢٩٢/٥-٢٩٣.
(٢٣) م.ن: ١١٠/١.
(٢٤) المفردات في غريب القرآن: ٣٢٠.
(٢٥) التبيان: ٣٣٩/٨.
(٢٦) م.ن:٤٧٩/٢.
(٢٧) م.ن: ٤٥٦/٢.

(٢٨) التبيان: ٣٨٩/١٠.
(٢٩) م.ن: ٩/ ٥١٠.
(٣٠) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ): ٨.
(٣١) التبيان: ٤٩٦/٧.
(٣٢) المفردات في غريب القرآن: ٣٢١.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- التبيان في تفسير القرآن،شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٣٨٥ - ٤٦٠هـ، مكتبة اليقين الالكترونية.

٣- فصوص الحكم لابن عربي، محي الدين بن عربي ت٦٣٨هـ، ضمن مكتبة أهل البيت الالكترونية.

٤- مبادئ النقد الأدبي: إ.أ. ريتشاردز: تر. د. مصطفى بدوي: مراجعة: د. لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، وزارة الثقافة والإرشاد، مصر، لا ط، لات.

٥- المفردات في غريب القرآن،،أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) ضبط: هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ط: ١٤٢٨:١هـ - ٢٠٠٨.

٦- نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، ضمن مكتبة اليقين الالكترونية.